

توماش ماستناك

الإسلام

وخلق الهوية الأوروبية

ترجمة

بشير السباعي

الكتاب : الإسلام وخلق الهوية الاوربية

المؤلف : توماش ماساك

ترجمة : بشير الباعى

الناشر : دار النيل - الإسكندرية

الإصدار الأول : يناير ١٩٩٥

الطابع : مطبعة الجمهورية - الإسكندرية

رقم الإيداع : ١١٢٧٢ / ١٩٩٤

الترقيم الدولى : 9 - 12 - 5360 - 977 I. S. B. N.

حمزة توفيق : طابع حسانين - الإسكندرية

توماش ماستناك:

باحث بمعهد الفلسفة بأكاديمية
العلوم والآداب، السلوفاكية.
ولد في سلوفاكيا في عام ١٩٥٣.

بمكتب دولتي لشؤون

مراجعة المذكرات طم ١٩٩٥

الرقم ١٧٧٩ ١٥١٢١

٧٤٧٢٢

إلى القارئ

يتتبع بحث توماش مستناك ظهور صياغات مختلفة لـ «الذات» الأوروبية الغربية على خلفية العلاقة مع «الآخر»، ويكشف إرتباط بلورة صورة سلبية عن «الآخر» بالميل إلى تحقيق مصالح دنيوية: أرض وثروات الآخر، الأهم بكثير من تحويله عن الإسلام أو الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية.

أما مقال ليون تروتسكى فهو يشير إلى المصالح الامبريالية الكامنة وراء الاستهانة بحياة «الآخر» ذاتها.

والحال أن البحث والمقال إنما يكشفان - كل بأسلوبه - عن الشرور التى تكمن فى قلب ايدىولوجية الهوية عموماً، خاصة عندما يكون شرط وجود «الذات» - فى هذه الايدىولوجية - هو استبعاد وحذف «الآخر» من الوجود.

ومن الطبيعى أن يكتسب البحث والمقال على حد سواء أهمية خاصة فى ظروف النزاع المحتدم الآن - على المستوى الفكرى - فى بلادنا بين دعاة الهوية الخصوصية - الإسلامية غالباً - والتى تحذف «الآخر» - غير المسلم - وإسهاماته فى الثقافة الإنسانية، ودعاة الوحدة فى إطار احترام التنوع والاختلاف بين بنى البشر على أساس من المساواة بين «الذات» و «الآخر» .

ولعل فى واقع أن كاتب البحث وكاتب المقال يكشفان - بحسب الترتيب - عن تحيز ايديولوجية الهوية الأوروبية الغربية والايديولوجية السلافونية الأوروبية الشرقية تجاه «الآخر» المسلم، برغم كونهما من غير المسلمين (الأول كاثوليكي غير ممارس والأخير ماركسى من أصل يهودى)، ما يدعو ذوى الوجدان النزيه عندنا إلى إدراك أنه ما يزال بوسع المقهورين فى الشرق أن يجدوا أصدقاء لهم فى الغرب، أما دعاة ايديولوجية الهوية الإسلامية أو القومية، فإن هذا البحث وهذا المقال لم يكتبوا لأجلهم!

بشير السباعى

وصف هنري بيرين، أحد أعظم مؤرخين أوروبا في هذا القرن، توسع المسلمين في القرنين السابع والثامن للهجرة حدوث هذه أوروبا من جانبين في وقت واحد. وطبيعي أن هذا الكلام كلام معبر به بشكل سافر من الناحية التاريخية. فأوروبا، آنذاك، لم تكن موجودة. وكان ما يزال يتعين تشكيل هويتها. وربما كانت أوروبا منحفية من الميثولوجيا الإغريقية، وفكرة جغرافية عامضة. لكنه، كجماعة سياسية أو ثقافية أو دينية كان يمكن أن تسقط أمام رحى المسلمين. لم تكن موجودة. والحال أن بيرين إنما يسقط على التاريخ قبل الأوروبي ليس فقط النظرة الأوروبية للتاريخ عموماً، وإنما بشكل خاص، فيه أوروبا لتاريخها الخاص والمستند على هوية أوروبية منتهية لتكوين وثابتة.

على أن هناك قدراً أكبر من الحقيقة في أطروحة بيرين التي تذهب إلى أن توسع المسلمين العسكري قد أجهز على وحدة عالم البحر المتوسط التي عرفها هذا الأخير في ظل الامبراطورية الرومانية، وحدد تطور أوروبا بتحويل جاذبية ذلك التطور إلى الشمال. لكن الحقيقة لا تكمن في دقتها التاريخية بقدر ما تكمن في ربطها الهوية الأوروبية بالإسلام: لقد كان الإسلام أساسياً بالنسبة لتشكيل هذه الهوية (وما يزال كذلك بالنسبة للحفاظ عليها).

وسوف أذهب في هذا البحث إلى أن الهوية الأوروبية لم تتشكل

عن طريق الإسلام، بل تشكلت، على نحو رئيسي، في علاقة هذا «الإمتداد الشمالى الغربى للقارة الأوروبية الآسيوية» بالإسلام. إن تشكيل أوروبا لم يبدأ بـ «الغزو العالمى» المسلم، كما اعتقد پيرين، بل بدأ بالحرب المقدسة التى خاضها المسيحيون اللاتينيون ضد المسلمين بعد ذلك بأربعة قرون. إننى أفهم الحروب الصليبية بوصفها تجربة تكوينية حاسمة لما سوف يصبح أوروبا وأعتبر أن هذه الحروب كان لها أثر عميق على الأفكار والمؤسسات الغربية. وسوف أركز هنا على تشكيل الجماعة المسيحية الغربية وأوروبا كوحدة لها «هوية جماعية» وقادرة على تنسيق الفعل وسوف أذهب إلى أن هذه الوحدة قد جرى التعبير عنها كقاعدة فى العلاقة بالمسلمين كعدو. ومن زاوية النظر هذه، تظهر الحروب الصليبية بوصفها «الاتحاد الغربى الأول» ويظهر «خلق جيش صليبي» بوصفه علامة على «تقدم مثير نحو السلم والوحدة الأوروبيين».

إن التشخيص المذكور أعلاه، والذي قدمه مؤرخ بارز، للحرب الصليبية بوصفها أداة للسلم والوحدة الأوروبيين يمكن قراءته بضحكة تهكمية مكتومة، لكنى أعتقد أن ذلك خطأ. فالواقع أن السلم والوحدة الأوروبيين كانا مرتبطين ارتباطاً حميماً بالحرب - بالحرب ضد أولئك الذين كان ينظر إليهم على أنهم يهددون تلك الوحدة، ضد أعداء فى الداخل وفى الخارج: الكفار، الهرطقة، دعاة الإنشقاق (الذين جرى ضم المتوحشين إليهم فيما بعد). وقد جرى جعل المسلمين العدو من

بين جميع الأعداء الممكنين. وجرى، على نحو سافر، اعتبار الحرب ضدهم مخرجاً للعنف الذى كان من شأنه، لولا ذلك، أن يجتاح الجماعة المسيحية وأوروبا، ومن ثم فقد جرى تصور السلم الأوروبى على أنه غير ممكن إلا بالارتباط بحرب ضد العدو الخارجى. لكن الأكثر من ذلك، فى تحولٍ خطيرٍ للمنظور، هو أن السلم والوحدة فى الجماعة المسيحية وأوروبا قد بدأ يجرى النظر إليهما كشرط مسبق لخوض الحرب ضد «أعداء الصليب».

والسلم هو مسألة السلطة، والحروب الصليبية، التى تتطلب السلم فى الجماعة المسيحية وأوروبا، كانت لحظة رئيسية فى عملية صوغ هياكل سلطة محورية فى شبه القارة الأوروبية. وقد صاغت الحروب الصليبية العلاقات بين السلطتين الروحية والزمنية؛ بين الملكية البابوية، الامبراطورية، والممالك الزمنية؛ و - فى فترة متأخرة، فى فجر الحداثة - بين السلطات العالمية الآخذة فى الأفول والدول الصاعدة ذات السيادة (وكذلك فيما بين تلك الدول نفسها). والحال أن الحروب الصليبية، بصوغها للعلاقات بين هذه الكيانات، قد صاغت الكيانات نفسها. وفيما سوف يلى، سوف أقدم أفكاراً مميزة حول السلم والوحدة الأوروبيين فى مراحل من التاريخ ترمز إلى تحولات فى تطور الهياكل «السياسية». وأرجو أن أبين أن تطور تلك الهياكل لم يؤد إلى تحويل صورة العدو المسلم الذى كانت هذه الوحدة وهذا السلم قد أقيما ضده

فى الأصل إلى صورة فات أوانها. فهذه الصورة لم تكن غريبة من عرائب العصر الوسيط. على العكس، لقد استمرت كل لحظة رئيسية فى صوغ وصون الهوية الأوروبية حتى نهاية الفترة التى أناقشها هنا، وهى لم تختف منذ ذلك الحين.

1

إن القصة التى أود حكايتها إنما تبدأ بصنع السلم. ففى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى، عشر ظهرت حركة سلم فى ما يعد الآن وسط فرنسا. وكان هدف هذه الحركة، المعروفة بسلام الرب و، فى فترة تالية، بهدنة الرب، هو إنهاء الحرب والعنف الداخلىين اللذين أبتليت بهما المسيحية الغربية. وكانت الحركة فى البداية تحت قيادة أساقفة وفى منتصف القرن الحادى عشر تبنى أهدافها باباوات الإصلاح الكنسى العظيم الذين سعوا إلى تنفيذها. وما يتميز بأهمية خاصة بالنسبة لما أذهب إليه هو، أولاً، أن الكنيسة قد ألحقت بنفسها محاربين تحولوا، فى تلك الفترة، إلى مرتبة إجتماعية، وحازت الكنيسة بذلك سيطرة على إستخدام العنف. وخلافاً للمذهب المسيحى التقليدى، كانت الكنيسة قد اعترفت الآن بالمهنة العسكرية، مما أدى إلى ظهور أخلاق عسكرية مسيحية. لقد جرى إضفاء الطابع المسيحى بشكل تدريجى على الحرب، وتطورت نزعة عسكرية مسيحية. وكانت الكنيسة مستعدة

بشكل متزايد لمباركة الأسلحة وإجازة استخدامها بإعتباره شيئاً مشروعاً جديراً بالإعتبار. وما يتميز بأهمية مساوية هو أن حركة السلم كانت حركة دينية ساعية إلى أن تقيم على الأرض «النظام الذى شاء له الرب أن يسود». وقد جرى إعلان السلم، فى مجامع السلم، باسم الرب. وكان أولئك الذين يجتمعون فى مجامع السلم يتوسلون إلى الرب نفسه أن يمنحهم السلم، وكان يحلفون له بأيمانهم السلمية، وكان الرب هو الذى أجاز وكرس ذلك السلم. أما أولئك الذين قد تسول لهم أنفسهم رفض الدخول فى العقد السلمى، فسوف يجرى اتهامهم بأنهم اتباع الشيطان.

لقد كان العيش فى سلام هو واجب جميع المؤمنين. وقد تصرفت حركة السلم باسم السلم والوحدة. وكان السلم هو الرابطة الاجتماعية، وكان المجتمع المسيحى، العائش فى سلام، مجتمعاً موحداً. لقد كان ينظر إليه على أنه جسم واحد، موحد؛ على أنه جسد مسيحى، إن لم يكن على أنه جسد المسيح بشكل مباشر. وقد ترتب على مثل هذا التصور أنه، خلال «هدنة الرب» التى أمرت بها حركة السلم، لا يجوز لأحد إيذاء أخيه - المسيحى. أما أن الآخر المحمى كان مسيحياً فهذا ملتبس. تم تأكيده بجلاء. وقد اتخذت الخطوة التالية والحاسمة فى مجتمع ناربون السلمى فى عام ١٠٥٤، حيث أعلنت قوانين المجتمع السلمى «لا يجوز لأى مسيحى أن يقتل مسيحياً آخر، لأن من يقتل مسيحياً...

يريق بلاشك دم المسيح». ويصعب أن تكون أهمية هذه الصيغة بحاجة إلى التشديد عليها. إنها فى جملة واحدة تقول من الناحية العملية كل ما واصلت حركة السلام الأوروبية قوله فى جميع القرون التى تلت مجمع ناربون. لقد دعت الصيغة إلى ضرورة صون السلم الداخلى التام فى المجتمع المسيحى. وحتى يتسنى لحركة السلم تحقيق ذلك وإحراز مزيد من التطور، فقد كان عليها أن تعثر على «مخرج خارجى ملائم لأولئك الذين تتمثل مهنتهم فى الحرب المسيحية».

والواقع أن المجتمع الذى يوحد نفسه فى البر المسيحى قد ولد الكراهية. فمنذ مستهل الألف عام الثانية بالفعل، عندما وصلت الغرب أنباء بأن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى (الذى تصفه تواريخ بأنه مختل عقلياً) قد أمر بتدمير كنيسة القبر المقدس فى القدس، وجدت «الوحدة الثقافية» الجديدة الغرب تعبيراً عنها فى اضطهاد اليهود - كباش الفداء الأولى فى العاصفة الآخذة فى التجمع، والتى يرمز إليها «تحول» عام ١٠١٠ الفاصل «من الديناميات الدينية الاستيعابية إلى الديناميات الدينية الاستيعادية». وقد تزواج هذا التحول مع تحول آخر: لقد كان العالم المسيحى يدخل عصر الهجوم العسكرى والتوسع. إن الحروب الدفاعية ضد النورمان والمجريين والعرب، والتى ميزت القرون الأخيرة من الألف عام الأولى، قد تلتها الحرب الهجومية ضد الكفار. والأحداث التى شكلت الواقع الجديد هى حرب الاسترداد فى أسبانيا وتحقيق

التحول إلى المسيحية في شمال وشرقي شبه الجزيرة الأوروية وهجمات بحرية بيزا وجنوة على معاقل المسلمين في سردينيا في مستهل القرن الحادى عشر وعلى المهديّة في تونس في أواخره والاحتلال النورمانى لصقلية وطرد اليونانيين من جنوب إيطاليا. وقد بدأت البابوية في تشجيع الفتوحات الإقليمية من جانب المسيحيين، وكان منتصف القرن الحادى عشر نقطة الإنطلاق لحرب متصلة ضد الإسلام في البحر المتوسط. وكانت هذه الحروب قد كفت عن أن تكون حروباً دفاعية. وقد ذهب المؤرخون إلى أن النضال ضد «أعداء الكنيسة الرومانية» قد تجاوز بكثير حدود رد فعل يمكن إضفاء الشرعية عليه من زاوية «الضرورة» وإلى أن المسلمين لم يكونوا قد قدموا ذريعة لتلك الحروب.

إن حركة السلم التى تتصرف باسم الرب قد تطورت إلى حرب ضد أولئك الذين ينظر إليهم على أنهم كفار. لقد تحقق سلام الرب فى الحرب المقدسة. وفى مجمع كليرمون فى عام ١٠٩٥، دعا البابا أوربان الثانى جميع المسيحيين إلى المشاركة فى الحرب الصليبية. وكان المجمع، «قبل كل شئ، مجمع سلم». إن الدعوة إلى الحرب الصليبية كانت المحصلة المنطقية، الخطوة التالية لحركة السلم. وقد أصدر البابا تشريع السلم بإصرار أكبر وفى مدى أوسع مما تم عمله فى أى وقت من الأوقات فيما قبل. لقد أصبح السلم عاماً، ملزماً للجماعة المسيحية الغربية بأسرها؛ وقد وجه تشريع السلم الجديد أسلحة المسيحيين ضد

الكفار. وجميع النصوص المختلفة لكلمة أوربان في كليرمون تشير إلى أن البابا قد حث المسيحيين على خوض حروب عادلة ضد غير المسيحيين بدلاً من الإنخراط في معارك غير عادلة، تدور رحاها بين الإخوة، فيما بينهم.

ويذكر فولشر الشارترى أن البابا، وهو يشير إلى نجاحات الأتراك العسكرية ضد اليونانيين، قد تكلم على النحو التالي: «أوه أى عار أن يتمكن جنس على هذه الدرجة من الحقارة والإنحطاط والعبودية للشياطين من أن يتغلب هكذا على إناس مميزين بالإيمان بالرب القادر على كل شيء ومتألقين باسم المسيح! أوه أى لوم سوف يوجهه الرب نفسه إليكم إن لم تساعدوا أولئك الذين يحسبون مثلكم مسيحيين! فليخرج أولئك الذين اعتادوا مستهترين على خوض حرب خاصة ضد المؤمنين إلى الزحف ضد الكفار في حرب يجب البدء بها الآن واختتامها بكسب النصر. ليتحول الآن أولئك الذين كانوا لزمّن طويل نهايين إلى جنود للمسيح. وليخرج أولئك الذين حاربوا يوماً ما ضد إخوتهم وأهلهم إلى النضال العادل ضد البرابرة».

ويروى كتاب «تاريخ حملة القدس» لمؤلفه روبرت الراهب أن أوربان الثانى، عندما دعا جنس الفرنجة المختار إلى تحرير القبر المقدس ليسوع المخلص من أيدي «الأمم الوسخة»، أشار إلى ندرة الأرض والثروة

فى بلاد الفرنجة: «إن هذه الأرض التى تسكنونها [...] جد ضيقة على عددكم الضخم؛ كما أنها لا تتمتع بوفرة فى الثروة؛ ونادراً ما توفر غذاءً كافياً لزارعىها. وهذا هو السبب فى أنكم تقتلون وتلتهمون أحدكم الآخر، فى أنكم تتقاتلون، وفى أنكم تهلكون غالباً من جراء الجراح المتبادلة. ولذا فلترحل الكراهية من بينكم، ولتنته نزاعاتكم، ولتتوقف الحروب ولتهجع كل الشقاقات والخلافات. أدخلوا الطريق المؤدى إلى القبر المقدس؛ انتزعوا تلك الأرض من أيدي الجنس الشرير، وأخضعوها لأنفسكم».

وقد حول جيير النوجينى هذه الأفكار إلى مفهوم. فقد كتب فى وقت جد مبكر من القرن الثانى عشر أن «الرب قد حدد فى زماننا أسلوباً مقدساً للحرب، بحيث أن الفرسان والعوام الذين كانوا، وفقاً لأسلوب الوثنية القديم، قد إنخرطوا فى السابق فى المذابح التى تدور فيما بينهم، قد وجدوا سبيلاً جديداً للفوز بالخلاص. إنهم لم يعودوا بحاجة، مثلما كان حالهم فى السابق، إلى أن يهجروا العالم تماماً عن طريق دخول دير أو عن طريق إلتنام مماثل آخر ما. إن بوسعهم الحصول على بركة الرب فى أسلوبهم وملبسهم المؤلفين وعن طريق أسلوب حياتهم العادى». وقد عرّف الحرب الصليبية على أنها معركة مقدسة وفهم الحرب المقدسة على أنها ظاهرة تاريخية جديدة.

على أن واقع أن الحرب الصليبية كانت حرباً مقدسة بإمتياز ليس هو ما يهم هذا البحث. كما لايهمه أن الحرب المقدسة المسيحية لم تكن رداً على الجهاد. ولا أن الحروب الصليبية كانت حروباً توسعية و، بهذه الصفة، حروباً هجومية. إننى سوف أذهب إلى أن الحروب الصليبية كانت حروباً دينية ضد الإسلام، حيث لايعتبر المسلمون كفاراً بين كفار كثيرين، بل يعتبرون العدو الأساسى للمسيحية؛ وإلى أن الأصولية المسيحية للحروب الصليبية كانت «إختراقاً فى قلب العالم المتمدن». فالمسألة الأساسية هى أن اختراع الحرب المقدسة كان غير منفصل عن اختراع العدو الرمزي للجمهورية المسيحية. ومن خلال الحروب الصليبية تطورت المسيحية إلى جماعة، ومن خلال خلق عدو مشترك تتعين محاربته بالقوى الموحدة لجميع المسيحيين - فى حرب تخاض باسم الرب - أصبحت المسيحية جماعة واعية بنفسها. وما كان جديداً لم يكن هو معرفة الإسلام بل الإصرار على تدميره عن طريق العنف المنهجي الذى تنظمه أعلى السلطات المسيحية. ما كان جديداً لم يكن هو أن عدواً قد جرى النظر إليه على أنه الآخر؛ بل أن آخراً محدداً قد جرى تصويره على أنه العدو الشامل.

لقد وصف النزاع بين فيليب الرابع، ملك فرنسا، والبابا بونيفاس الثامن، على أنه أول نزاع فى العصر الوسيط بين الكنيسة والدولة يمكن اعتباره بشكل دقيق نزاعاً حول السيادة القومية. وكان بيير ديبوا، وهو رجل قانون فرنسى، مساهماً فى الجدل الذى رافق النزاع. وأفضل إسهام معروف له فى الخصومة، وهو إسهام مؤيد للملك، هو رسالته التى تحمل عنوان: «حول استرداد الأرض المقدسة»، والمكتوبة فى عام ١٣٠٦. ومنذ نشر تلك الرسالة بعد نحو ستة قرون، كان ديبوا يتمتع بسمعة رجل سلام عظيم. وكان ما اقترحه هو إنشاء آلية للتحكيم الدولى لتجنب نشوب حرب بين الحكام المسيحيين. وكان على هذا التحكيم أن يحل السلم «الدائم» و «الشامل» بين المسيحيين - الموحدين بذلك فى «جمهورية واحدة» - وهو السلم الضرورى للخروج فى حملة صليبية من أجل استرداد الأرض المقدسة دون حاجة إلى القلق على ممتلكاتهم فى أوطانهم. على أن السلم بين المسيحيين، وراء هذا السبب البرجماتى للسلم، كان بالدرجة الأولى ضرورة أخلاقية. وقد ذهب ديبوا إلى أن «الحروب الداخلية فيما بين المسيحيين إنما تستحق الأسف العظيم، لأنه فى مثل هذه الحروب يموت كثيرون فى ظروف تجعل مكانتهم فى العالم الآخر غير مؤكدة إلى حد بعيد». ولأن

الحروب فيما بين المسيحيين غير جائزة، فإنه يجب تحويل ساحة الحرب إلى مكان آخر.

ومن المسموح لـ «أهل العدل» السعى إلى الحرب بل والحث عليها، لأن مثل هذه الحرب سوف تتيح «وقت فراغ لكسب الفضيلة والمعرفة بعد إنتهاء الحرب وإقامة السلام الدائم». ولأن المسيحيين، بحكم التعريف، هم أهل العدل، فإن الحروب التي يخوضونها سوف تجلب إليهم هم السلم الشامل - الانسجام الشامل، وهم الذين سوف يصبحون بذلك «أكثر تمتعاً بالفضيلة وأكثر معرفة وثراءً وأطول عمراً من ذي قبل» - «وأكثر قدرة على إخضاع الأمم البربرية». لأن الحروب التي سوف يخوضونها لجنى مثل هذه الفوائد لن تكون مجرد أية حروب من أى نوع، بل سوف تكون حروباً ضد الكفار. وهذه الحروب تتطلب السلم الداخلى. إن المسيحيين «سوف يكفون عن شن الحرب أحدهم على الآخر [...] [...] و] الأمراء المسيحيون، المتحمسون حماساً متبادلاً، سوف يتحدون فوراً ضد الكفار، أو سوف يرسلون على أية حال جيوشاً لاحتصارها من المحاربين من جميع الاتجاهات للبقاء كحامية دائمة فى الأراضى التى سوف يتم فتحها».

لقد كان ذلك تصوراً عن الحياة السعيدة وإعلاناً للحرب فى آن واحد. «إن مجمل أسرة المؤمنين المسيحيين الذين يدينون بالولاء للكنيسة

الرومانية يجب توحيدهم فى أواصر السلم. وباتحادهم على هذا النحو، سوف يمتنع جميع الكاثوليك عن شن الحرب أحدهم على الآخر [...] لا يجب لأى كاثوليكى أن يحمل السلاح ضد الكاثوليك، لا يجب لأحد أن يريق الدم المعمد. وإذا كان أحد يريد خوض الحرب فليكن متحمساً لخوض الحرب ضد أعداء الدين الكاثوليكى والأرض المقدسة والأماكن التى قدسها الرب».

وهذه الآراء - والفكرة الرئيسية التى تذهب إلى أن السلم فيما بين المسيحيين ليس غير وسيلة لخوض الحرب ضد غير المسيحيين - كانت، فى تلك الفترة، رائجة وشائعة. وواقع أن دييوا قد أخضع فكرة الحرب الصليبية لمصالح المملكة الفرنسية، وأنه، ربما جاز قول ذلك، قد أضفى عليها طابعاً قومياً وعلمنها، لا يغير من الفكرة الأساسية شيئاً.

3

دخل فيليب دو ميزير التاريخ بوصفه واحداً من مشجعى فكرة الحرب الصليبية فى القرن الرابع عشر. لقد كرس هذا «السياسى» الفرنسى كل حياته لفكرة واحدة - ومن ثم متهوسة: شن حرب صليبية ضد أعداء الدين المسيحى؛ ضد المسلمين، من أجل استرداد الأرض المقدسة. وسعياً إلى هذا الهدف، أراد دو ميزير إعادة توحيد وإصلاح المسيحية. لقد كان «السلم والوحدة بين صفوف المسيحيين»،

بالنسبة له، «إرادة الرب». وقد راوده الأمل فى أن يعقد الملك الفرنسى -
أى الملك الأكثر مسيحية - «مجمعاً عظيماً وبرلماناً عاماً» يوحد فى
السلم والصداقة والمحبة الأخوية جميع الحكام المسيحيين وينزىل الانقسام
المسيحى. وعندما يتحقق ذلك، فإن العصر الذهبى الجديد سوف يهل
وسوف يتمكن المسيحيون المتحدون، بأية وسيلة ضرورية، من جر
المنشقين والكفار، والتتار والأتراك واليهود والمسلمين إلى الدين الحق؛
وسوف يحررون مدينة القدس المقدسة ويخلصون الأرض المقدسة و
«يخضعون العالم للولاء المقدس للصليب الحق».

على أن دو ميزير كانت ماتزال فى جعبته خطة أخرى؛ وكان يود
تحقيق هذه الخطة بشكل آخر أيضاً. وقد علق آماله على الملكين
الجديدين لفرنسا ولا إنجلترا - شارل السادس وريتشارد الثانى - وحثهما
على التوقف عن مقاتلة أحدهما الآخر. وببلاغة عظيمة (كبلاغة رجل
مثل ايرازموس قبل ظهور النموذج الأخير) وصف كافة الشرور والمعاناة
التي تجلبها الحروب فيما بين المسيحيين. وقد حاول إثبات أن «إراقة دماء
المسيحيين المعمدين» تعد مكروهة من الرب. ونبه إلى «أننا عندما نريق
دم إخواننا فإننا نقتل يسوع المسيح مرة أخرى». لقد أدت الحروب
الداخلية بين الأشقاء إلى فقدان المسيحيين للأرض المقدسة، وبسبب
هذا الاقتتال الذى يدعو إلى الأسف وجدوا أنفسهم عاجزين عن
استردادها. وهذا بالتحديد - شن حرب صليبية من أجل استرداد الأرض

المقدسة، الاجتياز المقدس للبحر - هو ما وضعه دو ميزير نصب عينيه. وبكلمات غزلية، حاول اقناع ريتشارد وشارل بأن من شأن «تحالف واتحاد أبدى فى الرب» بينهما أن يؤدى إلى «السلم والوحدة فى الكنيسة والمسيحية بأسرها». وبمجرد تحقيق هذا الاتحاد والسلم، فإن الحاكمين المسيحيين الأعظم سوف يضيئان، كمنارتين، «الطريق المباشر المؤدى إلى القدس». وعندئذ فإن الشعب المسيحى الذى كان قد عاش حتى ذلك الحين فى ظلام الانقسامات والحروب الداخلية سوف يهتدى بذلك الضوء. إن يسوع قد جعل من ريتشارد وشارل القائدين اللذين سوف يأخذان شعبه المختار - الجماعة المسيحية الغربية - إلى أرض الميعاد وينتزعان القبر المقدس من الأيدى القذرة لاتباع محمد الكذبة، المدانين فى نظر الرب.

وإذا كان دو ميزير قد اعتبر الحرب فيما بين المسيحيين حرباً ضد الرب، فإن الحرب ضد الكفار كانت بالنسبة له ليس فقط حرباً تخاض في سبيل الرب، وإنما أيضاً حرباً أمر بها الرب. «إن علينا أن نبذل الجهد وأن نمارس العنف وفقاً لمبدأ القديس بولس الرسول». وعلى المسيحيين شن «حرب صالحة وجبارة» ضد «الأتراك، الأعداء الشرسين وعديمي الشرف للدين». والحال أن «تحويل شيعة محمد الكاذبة إلى اعتناق المسيحية أو تشتيت شملها والقضاء عليها وعلى كل وثنية» هو «شيء

يريد الرب من المسيحيين عمله» .

4

بعد خروج البابوية ظافرة من النزاع بين الحركة الجمعية والملكية البابوية، تنافس مشروعان سلميان / صليبيان على كسب تأييد الحكام المسيحيين في منتصف القرن الخامس عشر. ويرتبط أحد المشروعين بجيرجي بوديراد، الذى توج ملكاً على بوهيميا باسم الملك جورج؛ ويرتبط المشروع الآخر بخصمه اينيا سيلثيو ييكولومينى، الذى انتخب ليكون بابا باسم البابا بيوس الثانى فى عام ١٤٥٨ . وفى حين أننى لايمكننى أن أتناول هنا النضالات السياسية التى صيغ فيها هذان المشروعان، فإن أفكارهما الرئيسية تعد محورية بالنسبة للقصة التى نحكيها.

لقد كانت خطة السلم التى طرحها الملك جورج الهوسى الميول تهدف إلى توحيد المسيحيين على أساس تعددية للسلطات الإقليمية، مع إمكانية تأسيس الوحدة والسلم بين صفوفهم من خلال تنظيم حرب ضد الأتراك (الذين أصبحوا، مع الرينسانس ومع ازدهار الدولة العثمانية، يرمزون إلى قوة المسلمين). ودياجة الخطة إعلان دقيق لـ «الايديولوجية الأوروبية». فهى تستحضر أولاً صورة العصر الذهبى، صورة المسيحية التى

كانت مزدهرة فى وقت من الأوقات، مباركة بالبشر وبالخيرات، والتي سيطرت لزمان طويل على جزء كبير من العالم الوثنى، بما فى ذلك القبر المقدس: «فى تلك الأزمنة لم تكن فى العالم أية أمة يمكن أن تتجراً على تحدى الحكم المسيحى». والحال أن البيان السلمى، الذى كتب بعد عقد من سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك، إنما يشرح كيف أصبحت الجماعة المسيحية ممزقة وكسيرة وفقيرة ومحرومة من كل ما كانت تتمتع به من قبل من روعة وبهاء. «عندما كان العالم كله تقريباً قوياً بقدسية الدين المسيحى، تمكن محمد الداهية فى البداية من تضليل الأمة العربية الهزيلة. إلا أنه عندما لم تلق المحاولات الأولى معارضة، تمكن [محمد] تدريجياً من كسب كثيرين جداً من الناس الضائعين بحيث تسنى له أن يخضع أقاليم جد شاسعة من افريقيا وآسيا وحرصهم على ارتكاب غدر كرية أكثر من سواه. ثم وجدنا أن الأتراك الحقراء تماماً، والذين أخضعوا مؤخراً جداً فى البداية الامبراطورية اليونانية المجيدة ثم الكثير جداً من الأراضى والممالك المسيحية، قد خطفوا من الأجزاء المسيحية حشداً لاحصر له تقريباً من الأنفس واستولوا على كل شئ كغنيمة ودمروا ودنسوا الكثير من الأديرة والكنائس العظيمة واقترفوا الكثير جداً من الشرور الأخرى».

وكما هو متوقع، فإن التذرع بأسطورة تاريخية وتصوير الانحذار

الحالى للمجد الغابر على أنه نتيجة لفعل عدو غادر، مما يتطلب تحركاً،
إنما يعد دعوة إلى حمل السلاح. «أوه، أيتها الأرض الذهبية! أوه أيتها
المسيحية، أنت يادرة جميع الأراضى، كيف يمكن لكل مجدك أن
يزول بهذا الشكل، كيف تفقدين كل بهائك الرائع؟ أين حيوية كل
شعبك، أين الإجلال الذى أظهرته لك كل الأمم، أين مجدك الملكى،
ذيوخ صيتك؟ وما نفع كل انتصاراتك إذا كان قد أمكن بسرعة اقتيادك
فى زحف ظافر؟ وما نفع مقاومتك لسلطة القادة الوثنيين بينما أنت الآن
عاجزة عن صد هجمات جيرانك؟». لقد كان الكتاب فى البلاط
البوهيمى متحمسين لأن يؤكدوا لأولئك الذين كانوا يأملون فى أنهم
سوف يؤيدون مشروعهم على وجود كل الموارد التى يحتاجها المسيحيون
لتحسين وضعهم. وكل ما هو مطلوب لتعبئة هذه الموارد هو أن يصلحوا
أسلوب حياتهم. لأن وضعهم المؤسف كان ينظر إليه على أنه علامة
على أنهم لابد وأنهم قد أغضبوا ذى الجلال الإلهى عن طريق فعل
سئ ما. وهذا يدعو إلى أعمال ورعة لتهدئة غضب الرب. وقد كتبوا
أنه بما أن الرب عادل ورحيم وأن «أولئك الذين يحبهم يقومهم ويوبخهم
ويقودهم إلى الفضيلة عبر الكثير من المحن، فإننا نرى، معلقين آمالنا على
ربنا الذى يتصل الأمر بقضيته، إننا لا يمكننا عمل شئ أكثر ورعاً فى
استقامتنا [...] من السعى باجتهاد إلى إقامة السلم والوحدة والمحبة
الصادقة والطاهرة والدائمة فيما بين المسيحيين وإلى الدفاع عن دين

المسيح ضد التركي الغاشم». إن الأمراء المسيحيين قد منحوا سلطتهم من أجل الإعلاء من شأن السلم وصور مركز المسيحية والوصول بالحروب ضد الكافر إلى نهاية ناجحة وحماية وتوسيع حدود الجمهورية المسيحية. ولم يجبر السماح بأى شك فى أن أولئك الذين لن يحاربوا فى سبيل الرب هم أعداء له: «إذا كنا لانريد أن نكون ضد المسيح، فإن علينا أن نقاتل فى سبيل دينه وأن نقف إلى صفه. لأن الروح القدس يلعن أولئك الذين لا يقاتلون فى صفه، الذين لا يعارضون العدو، الذين لا يقفون كجدار لحماية بيت اسرائيل». وحتى يتسنى للمسيحيين التمكن من خوض الحرب فى سبيل الرب وضد أعدائه، فإن عليهم وقف قتال أحدهم للآخر والتوحد: «إن مثل هذه الحروب، وهذا النهب وهذه الفتنة وهذه الحرائق وأعمال القتل والتى، وأأسفاه، اجتاحت المسيحية من جميع الجهات تقريبا [...] يجب أن تنتهى وأن يتم استئصالها تماماً» بحيث «يمكن الوصول بمثل هذه الممالك والامارات من خلال الوحدة الجديرة بالثناء إلى حالة بر وإخاء متبادلين».

وهذا البر والإخاء خصوصى. إنه بر «نا» وإخاؤ «نا»، وهو بهذه الصفة خط فاصل بين «نا» أو «كلنا» وبين أولئك الذين لا ينتمون إلى «نا»، الذين هم خارج الوحدة المسيحية. وقد جرى الزعم بأن عبادة السلم مستحيلة دون العدل؛ على أن العدل كان أسماً للاستبعاد وكان

السلم شرطاً أساسياً وأداة للحرب. فالمسيحيون يجب أن يحبوا أحدهم الآخر حتى يتسنى لهم أن يكرهوا غير المسيحيين بشكل فعال؛ وعليهم أن يحيوا في محبة ووفاق أخويين حتى يتسنى لهم أن يجهزوا بقوة موحدة على أعدائهم. وقد جرى تصوير «الأتراك»، والسلطان التركي كرمز لوجودهم السياسى، فى صورة «العدو الألد للاسم المسيحى»، وكان على الأمراء الأوروبيين المتحدين فى السلم أن يقسموا بـ «أننا لن نكف عن مطاردة العدو [...] حتى يتم طرده من الأرض المسيحية».

تلك هى الفكرة التى تقاسمها الملك المهرطق مع رأس استقامة الدين المسيحى، خصمه بيوس الثانى. وفيما سوف يلى، سوف نرى بشكل أوضح أن أوروبا، ككيان واع بنفسه، قد صيغت عبر الممارسة المتخيلة (وليس فقط المتخيلة) والخاصة بتطهير نفسها من التركي. لقد كان «التطهير العرقى» مكوناً أساسياً من مكونات مفهوم أوروبا منذ البداية.

5

فى سياسته الأوروبية، استرشد اينيا سيلفيو بيكولومينى، البابا بيوس الثانى الإنسانى، بفكرة موجهة واضحة ودائمة: الحرب الصليبية ضد الكفار. وبعد سقوط القسطنطينية، اجتهد بيكولومينى فى دفع المسيحيين

إلى الرد على هذا الحدث بفعل مناسب. وفي تلك الفترة بالفعل طور الأفكار الرئيسية لسياسته الصليبية والتي سوف يعود إليها مراراً، مضيفاً القليل إلى الجعبة التقليدية للموتيفات الصليبية. وبوصفه رجل سياسة وزعيماً كنسياً، فقد رأى أن المسيحية قد لحق بها العار وأن أوروبا أصبحت مهددة. ورداً على ذلك، سعى إلى إقامة السلم فيما بين المسيحيين بوصفه الشرط المسبق الضروري لتوحيد القوى ولإعلان الحرب على أعداء الدين.

وبوصفه من أنصار النزعة الإنسانية، صور بيكولوميني الأتراك على أنهم يدمرون الثقافة اليونانية واللاتينية، مصدر المعارف والفنون الأوروبية. إلا أنه على الرغم مما قد يكون لهذه الخسارة من ضخامة، فقد كان احساس بيكولوميني أقوى بكثير تجاه ما اعتبره ضربات موجهة إلى الدين المسيحي. فبينما كان هذا الدين قد هيمن في وقت من الأوقات على العالم كله، فإنه قد تعرض للدمار في آسيا وليبيا ولن يجرى تركه في سلام في أوروبا. «لقد رأينا هزيمة اليونانيين، والآن نترقب خراب اللاتينيين. [...] إن السيف التركي معلق بالفعل على أعناقنا، بينما نخوض حرباً داخلية؛ إننا نضطهد إخوتنا ونسمح لأعداء الصليب بالتحرك ضدنا».

وسعيّاً إلى قلب الموجة، دعا بيكولوميني إلى اتخاذ تدابير ليس فقط للدفاع عن الممتلكات المسيحية وإنما أيضاً لمهاجمة وتدمير الأتراك في

عقر دارهم. وقد سمعت مثل هذه الدعوات من قبل، شأنها في ذلك شأن الزعم بأنه ما من شيء يمنع المسيحيين من النجاح سوى تقصيرهم وانقساماتهم. ومرة أخرى، يجرى استخلاص الاستنتاج الذي يذهب إلى ضرورة إقامة السلم بين المسيحيين حتى يتسنى لهم الخروج إلى الحرب. وما كان جديداً عند بيكولوميني هو إدراك أكثر حدة لتبعثر السلطة في الغرب، و، بدرجة أكثر أهمية، وعى «أوروبي» متزايد - إدراك أنه بالرغم من تبعثر السلطة، فإن كيانياً جماعياً جديداً، «أوروبا»، آخذ في الظهور وأن هويته بحاجة إلى التعبير عنها.

وقد نُسب الفضل إلى بيكولوميني في شحن فكرة أوروبا - التي تزايد استخدامها في القرن الرابع عشر وبشكل خاص في القرن الخامس عشر والتي أصبحت محتواها عاطفياً بشكل متزايد - بمعنى سياسى. وقد بدأت فكرة أوروبا تعمل كحامل للوعى السياسى الغربى المشترك. وليس من الصعب أن نلاحظ أن وعى الغرب السياسى بذاته قد جرى التعبير عنه في مواجهة «الخطر التركى»: وبالنسبة لبيكولوميني ولشركائه، فإن ما كان عرضة للتهديد هو «أوروبا». وما كان ضرورياً لمثل هذا الطرح للمشكلة - لإدراك أن أوروبا هي المعرضة للتهديد - هو المفاهيم الواضحة، وعلى أية حال الأوضح من تلك الموروثة من الماضى. وفي أعماله الجغرافية، حدد بيكولوميني الأرض الأوروبية بدقة أكبر مما فعلت الأعمال التقليدية في هذا الباب. على أن انجازه الرئيسى يبدو أنه

يتمثل فى آن واحد فى ربط هذه الوحدة الجغرافية المحددة بالمسيحية وفى فصلها عن المسيحية فى الوقت نفسه. ودعونى أوضح ذلك.

بأحد المعانى، كانت أوروبا هى أوروبا المسيحية: كانت المسيحية تتطابق مع أوروبا وكانت أوروبا هى أرض المسيحية. وقد تشكل هذا التطابق على أساس خسارة أراضٍ مسيحية فى آسيا الصغرى - أى على أساس اختزال أراضى المسيحية. ولأن المسيحية، كمفهوم، لا تتطابق مع أوروبا، لم تكن المسيحية مفهوماً أوسع من أوروبا وحسب، بل كانت مفهوماً عالمياً، وقد كانت، بهذه الصفة، فى ظل الظروف التاريخية السائدة غير الملائمة، عالمية تقتصر على مجال جغرافى محدد - ومن ثم يمكن تمييزه من الناحية الثقافية. وقد رأينا أن بيكولومينى قد زعم أن المسيحية فى الأزمنة السعيدة القديمة كانت تهيمن على العالم كله، بما يتمشى مع رسالتها العالمية، لأن المسيح قد جاء لتخليص البشرية بأسرها. أما الوضع الفعلى، مع تراجع المسيحية إلى أوروبا، فقد كان فى تعارض صارخ مع هذا التصور. «إن كل ما كنا نملكه فى آسيا، قد خسرناه بشكل بشع؛ لقد هربنا وتركنا محمداً يحرز النصر». وإذا كانت أوروبا الجغرافية، حتى ذلك الحين، مسيحية منذ قرون، فإن المسيحية قد بدأت للتو فى أن تكون «أوروبية»، متطابقة مع أوروبا. ومع ذلك فقد ظلت المسيحية ديانة عالمية. وأصبحت أوروبا هى حاملة تلك العالمية. وما حفز وعى أوروبا بذاتها هو هذا الالتقاء المهيّب الذى لا يمكن فيه التوفيق بين

عالمية المسيحية وجغرافيتها المحدودة - وكذلك التصور الجديد بأن الغرب المسيحي قد أصبح الآن مطوقاً بعالم معادٍ. إن المجال الجغرافي الذي يتميز بحدود جد واضحة بشكل متزايد، والذي تطور، على أساس هويته الدينية أساساً، إلى مجال ثقافي، هو بحاجة إلى الدفاع عنه ضد تهديد الكفار الفعلي - بل وبدرجة أكثر من ذلك تهديدهم الرمزي. وهذا المجال بحاجة إلى تطهيره من كل ما يعتبر غير منتم إليه، وبالدرجة الأولى من «الأتراك». والدين الحق بحاجة إلى مساعدته على العودة إلى العيش وفقاً لفكرته مرة أخرى: إن العالمية المسيحية، المتضمنة في أوروبا، كانت إحدى مصادر التوسع الأوروبي.

وكانت اللغة التي تحدث بها بيكولوميني عن خسائر المسيحية الإقليمية لغة جديدة بشكل مميز - لقد كانت لغة جيوبوليتيكا، بأكثر مما كانت لغة الايديولوجية الصليبية القديمة. إن القضية ذات الأهمية هي الممتلكات المسيحية خارج أوروبا، وكان من الواجب حسم مصيرها - وسوف يظل هذا الواجب قائماً - عن طريق القوة المسلحة. ومن حيث المبدأ، أو لإعتبارات الدعاية على الأقل، لم تخامر بيكولوميني أية شكوك في التفوق العسكري للشعب المسيحي، ودعواته في أزمنة المحنة تلك والتي تذهب إلى ضرورة الدفاع عن الدين تتحول بسهولة إلى تصورات عن نشر الدين وعن التوسع الإقليمي، حتى إلى ما وراء الحدود التركية الشرقية. لكن ما كان يشغل باله بالفعل هو النجاحات

العسكرية التركية . وقد سجلها بعين جغرافي وبعقل رجل سياسة ، حتى يوضح أن الأراضي المفتوحة ، والأراضي التي يحتمل فتحها ، تعد أراضي أوروبية ، أن أوروبا هي التي تتعرض للهجوم . وبالنسبة لبيكولوميني ، فإن تهديد وجود أوروبا السياسي والخطر المحدق بالدين المسيحي مرتبطان ؛ إن الاختراقات التركية في أوروبا هي في الوقت نفسه هجوم على الدين المسيحي . وقد نبه إخوته الأوروبيين « مالم نحمل السلاح ونخرج لملاقاة العدو فإننا نرى أن الدين سوف يزول . إننا سوف نصبح بين الأتراك في الوضع الذي نجد فيه جنس اليهود المحتقر بين المسيحيين » . وهكذا أفصح عن القاعدة الذهبية الجديدة ، القاعدة الذهبية لأوروبا الجديدة : لاتسمحوا للآخرين بمعاملتنا بالشكل الذي نعامل به الآخرين .

ولأن بيكولوميني قد ميز على المستوى التحليلي بين أوروبا والمسيحية ، فقد تمكن من الجمع بينهما في تركيب قوى . وبما أن خضوع أوروبا للكفار سوف يجر إلى فناء « ديننا » ، فإن الحرب الصليبية التي كان بيكولوميني يعمل من أجلها بلاتوقف يجب أن تكون ذات طابع مزدوج : إنها يجب أن تكون في آن واحد حرباً في سبيل أوروبا وحرباً في سبيل المسيحية . والحرب في سبيل أوروبا حرب مسيحية ، والحرب في سبيل المسيحية حرب أوروبية . وليس لهذه الحرب المقدسة ذات الحدين غير هدف واحد : مقاتلة المسلمين وسحقهم . ومسلحاً بهذه الأفكار ، فإن بيكولوميني ، بمجرد انتخابه بابا ، قد عقد مؤتمراً

أوروبياً فى مانتاو لمناقشة، ولاتخاذ خطوات من أجل، الدفاع عن الجمهورية المسيحية. وقد فشل المؤتمر - فشل فى شن حرب صليبية - على أنه نجح فى صوغ استراتيجية سياسية. لقد كانت صيغة السياسة الجديدة - الأوروبية - بسيطة وواضحة: «طرد التركى من أوروبا». ول تكن تلك استراتيجية أوروبية بمعنى تنفيذ أوروبا لبرنامج سياسى وعسكرى وثقافى. لقد كانت استراتيجية أوروبية بمعنى تشكيل أوروبا. وعن طريق صوغ هذا البرنامج وحده - أن «التركى» يجب طرده من أوروبا، أن الكيان السياسى الأوسع الآخذ فى الظهور يجب تطهيره - سوف تخرج أوروبا إلى الوجود، سوف تكون قادرة على تشكيل نفسها. إن الحرب المقدسة هى المبدأ التكوينى الدينامى لأوروبا.

6

بعد نصف قرن من رحيل بيوس الثانى، الذى دعا إلى حرب صليبية باسم الإنسانية، سوف يكف الإنسانىون الأوروبيون عن الدعوة إلى تحويل شفرات المحارث إلى سيوف، مثلما كان الكاردينال بيساريون، المساعد المتحمس لبيوس، قد فعل. إنهم يرتلون بدلاً من ذلك انجيل السلام - باجتهاد كبير بحيث يساعدون على «مولد لغة جديدة»، على مولد «خطاب سلم». إلا أن بوسعنا أن نرصد، فى هذه اللغة الجديدة، بعض الأفكار القديمة. وهذا ممكن حتى فى كتابات ايرازموس

الروتريدامي، أوسع الإنسانيين المسيحيين نفوذاً، والذي كثيراً ما جرت الإشادة به لما يقال عن رفضه الذي لا يعرف المساومة للحرب. فكما تبين آرائه حول «المسألة التركية»، لم يكن شجبه للحرب شجباً مطلقاً.

لقد كان ايرازموس يخشى الأتراك. وعلى خلفية نجاحاتهم العسكرية، فإن مخاوفه لا تبدو عديمة الأساس كلية. وبالرغم من احتمال كونه صاحب موقف انتقادي من الماضي الذي يمثله العصر الوسيط، فإنه لم يجد مشكلة في أن يكرر الصيغ التقليدية التي تذهب إلى أن النزاع فيما بين المسيحيين قد أفاد الأتراك وأن النزاعات بين الحكام المسيحيين قد مهدت الطريق أمام الأتراك. لقد أعرب عن أسفه تجاه الحرب فيما بين المسيحيين بوصفها «شيئاً من أفظع الأشياء» وشجبها بوصفها حرب «قتل للإخوة» [كذا]. وقد رأى ايرازموس أنه إذا كان من المستحيل تفادي مثل هذه الحرب، فإنه يجب عندئذ خوضها «بأدنى تكلفة في الدم المسيحي». وبالنسبة لايرازموس، بصرف النظر عن هذا التنازل، فإن الحرب في العالم المسيحي غير مقبولة، لكنه أعرب عن قبوله لحملة عسكرية من أجل مواجهة الاختراقات التركية في أوروبا. على أن ايرازموس لم يتخذ موقف عدم «الاعتراض بصورة مطلقة» على شن حرب ضد الأتراك استناداً إلى مجرد حجج الدفاع. فعلى أساس الانثروبولوجيا الفلسفية أيضاً لم يسلم وحسب بجواز مثل هذه الحرب - بل إنه قد أوصى بها. إن النظرة المستسلمة التي تذهب

إلى أن الحرب قد تكون «آفة الطبيعة البشرية القاتلة» لم تكن قد دفعته بعد إلى اليأس. وقد تساؤل ايرازموس بشكل بلاغى: لو كانت الطبيعة البشرية تبدو بالفعل «غير قادرة تماماً على الاستمرار دون حروب، فلماذا لايجرى إطلاق العنان لهذه العاطفة الشريرة على الأتراك؟». إن الأسئلة البلاغية تحفز الإجابات المنشودة. وإذا كانت الحرب بوجه عام لايمكن «تجنبها كلية»، فإن الحرب ضد الأتراك «سوف تكون شراً أصغر من النزاعات والصدامات غير المقدسة الحالية بين المسيحيين».

وقد أشير عن حق إلى أن ايرازموس قد سلم بحق مشروط فى خوض الحرب خارج العالم المسيحى. وهذا الحق مشروط لأن الحروب ضد غير المسيحيين لايجوز خوضها إلا كملاذ أخير وقد ذهب ايرازموس إلى أنها يجب أن تخاض «بشكل مسيحى». فما كان يأمل فيه ايرازموس هو إخضاع الأتراك وجذبهم إلى المسيح: فهو يفضل كسبهم إلى الدين المسيحى على قتلهم. وبالرغم مما قد يكون عليه الأتراك من شر، فإنهم؛ على أية حال، بشر. «ونحن بقتل الأتراك إنما نقدم للشيطان أجمل قربان، وبهذا الفعل نفسه إنما ندخل السرور على قلب عدونا، الشيطان، مرتين: أولاً، لأنه يجرى قتل إنسان، وثانياً، لأن مسيحياً هو الذى يقتله».

إلا أنه حتى مع كون الأتراك «بشراً»، فإن ايرازموس يعتبرهم

«برابرة». وقد وصفهم بأنهم بهائم وحشية، وأعداء للمسيح وشعب موبوء بجميع أنواع الجرائم والأعمال المشينة؛ وكان محمد فى نظره مجرمًا. والواقع أن ايرازموس كان بحاجة إلى هؤلاء «البرابرة» حتى يتسنى له النظر إلى نفسه كأوروبى. لأن ايرازموس لم يعتبر نفسه أوروبياً إلا فى مواجهة الأتراك، فى مواجهة «الخطر التركى». ويتمثل انحياز ايرازموس الفكرى فى تأسيس النظرة التى ترى الشر فى داخل العالم المسيحى / الأوروبى. «ترى ما الذى يقوله الأتراك والمسلمون عنا عندما يرون أن الأمراء المسيحيين قد عجزوا على مدار مائة عام عجزاً تاماً عن الاتفاق فيما بينهم؟» و «ما هو المشهد الأكثر مدعاة لسرور الأتراك من رؤيته ونحن نقتل أحداً الآخر كل يوم؟». «أوه، لقد أريقت دماء أكثر من اللازم - وهى ليست مجرد دماء بشرية بل دماء مسيحية - وحدث جنون أكثر من اللازم فى التدمير المتبادل، وحدثت تضحيات هى الآن أكثر مما يلزم حتى للجحيم وللأرواح الشريرة - حدث منذ وقت طويل ما يكفى لأن يلمع السرور فى أعين الأتراك».

ولم يخترع ايرازموس فقط النظرة التركى الشريرة التى تسعد لأسوأ ما يحدث فى أوروبا المسيحية من نوائب، بل إنه قد تممها بكشفه السياسى الخاص على القلب. فقد اكتشف التركى فى قلوب الأوربيين. أما أن الأوربيين المسيحيين هم، فى قلوبهم، كالأتراك فإن من الواضح أن ذلك هو أصعب شئ كان يمكن للإنسانى المسيحى أن

يتصور قوله. إن الأوروبيين، فى أعماق كينونتهم، ليسوا أوروبيين. وهم، بسبب أسلوب حياتهم غير المسيحى، إنما يحملون الآخر غير المسيحى فى صدورهم. وعندما يكون العدو أقرب، فإن من الواجب محاربته بقوة أشد. وبالنسبة لايرازموس، فإن الحرب ضد الأتراك هى أولاً وأساساً حرب ضد التركى «الذى يسكن قلوبنا». هذا «التركى» يجب طرده أولاً. وإذا لم يصلح الأوروبيون المسيحيون أنفسهم، إذا لم يقوموا أخلاقهم، إذا لم يطهروا قلوبهم من التركى؛ فإنهم لن تتاح لهم أية فرصة للتغلب على الأتراك. إنهم سوف يحاربون التركى كأتراك - ومن الأرجح أن «ينحطوا إلى أترك» هم أنفسهم بدلاً من أن يحولوا الأتراك إلى مسيحيين.

هذه الدعوة الموجهة إلى الأوروبيين لكى ينظروا فى قلوبهم، أن عليهم أن يواجهوا أنفسهم الشريرة وأن يبدأوا فى العيش بشكل يسر الرب؛ هذا الفهم الذى يذهب إلى أن الحرب ضد الأتراك تتطلب فى المقام الأول نضال الأوروبيين مع أنفسهم، مع أنفسهم الأوروبية، إنما يذكرنى بالجهاد الأكبر باعتباره الجهاد مع النفس. على أن نضال الأوروبى مع نفسه لن يكون نضالاً مع نفسه الشريرة هو. فشر الأوروبى الخاص لايجرى النظر إليه على أنه آخر نفسه، بل على أنه الآخر نفسه. إن الشر ليس فى قلبه، إنه ليس من صنعه - بل يجرى النظر إليه على أنه شوكة فى قلبه. فالشر يجرى من الخارج؛ والآخر له وجود تاريخى

فعلى . ومن ثم فمن السهل الهرب من نضال المرء مع نفسه هو إلى الحرب ضد الآخر الفعلى ، لان تطهير القلب الأوروبي لم يكن قد كف عن إملاء تطهير أوروبا: الحرب ضد الأتراك . ولكن حتى إذا لم يكن الأمر كذلك ، حتى إذا كان على الأوروبيين بالفعل أن يحاربوا الشرف في أنفسهم ، فإنهم ليس عليهم أن يقوموا أنفسهم أخلاقياً إلا للفوز بفرصة أفضل لإحراز النصر في حربهم ضد الأتراك .

على أنه أياً كان الأمر ، فإن ايرازموس مازال يمكن النظر إليه بوصفه أكثر مفكرى الحرب المقدسة الأوروبية سمواً .

7

حول هذه المسألة ، كانت لتوماس مور ، وهو صديق لايرازموس وقديس ، آراء مماثلة . فبالنسبة له ، أيضاً ، كان «الخطر التركى» مزدوجاً: فهو خطر واقعى وخطر رمزى . وكان الأتراك فى نظره «شيعة مخزية ، تؤمن بالخرافات» و «الشيعة المقيته التى تتألف من ألد أعدائه [المسيح]» ، «أعداءه السافرين ، الصرحاء» الذى يمثلون قوى الظلام والشيطان . وكانت مألوفة الرينسانس عن «التركى الدموى والمتوحش» تطارده: «دائماً ما تبرز أمام نظرة قلبنا صورة مخيفة لهذا الشئ الرهيب: قوته وجبروته الذى لاحد له ، حقه وبغضه الضخم ، ووحشيته التى لا نظير لها» . وقد رأى مور أن هذه القوة تهدد «مجمل جيد المسيحية» ، وانضم

إلى الجوقة الداعية إلى السلم والوفاق فيما بين المسيحيين . فهذا وحده هو
الذى سوف يسمح لهم بمحاربة العدو المشترك بنجاح وبالدفاع عن
اسم الرب .

وكان الأصغر سناً بين هؤلاء الإنسانيين المحبين للسلم هو خوان
لويس بيبس ، وهو كوزموبوليتى أسباني انشغل بالتفكير فى أوروبا
موحدة . والإشادة بـ «ايرازموس وأصدقائه» على أنهم كانوا «متفوقين فى
بعد نظرهم ونضوج تصورهم الأوروبى» ، إنما تنطبق بشكل خاص على
بيبس . فقد رأى بيبس أن أوروبا تشكو من ضرر رهيب من جراء
حروبها التى لا تتوقف . وقد تصور أن بقاء أوروبا مرهون بما لا يقل عن
إعادة بناء شاملة . والشرط الأساسى لمثل هذا التجديد هو أن يتوقف
الأمراء الأوروبيون عن محاربة أحدهم الآخر . ففى نظر بيبس ، لاتعد
الحروب بين المسيحيين حروباً بل هى جنون . أما جنون بيبس الخاص
فهو فزعه الوسواسى من المسلمين ، والذين رأى أن نجاحاتهم العسكرية
إنما تنبع من الشقاق بين المسيحيين . وكانت كتاباته ، خاصة رسالته
«عن الانقسامات الأوروبية والحرب التركية» ، استنفاراً لأوروبا إلى
الوحدة ضد التركى و «الإسراع إلى حمل السلاح لتدميره» . وقد تجاوز
تصوره إلى حد بعيد ما يمكن اعتباره تحريراً للأمم الأوروبية من النير
التركى . فما كان يشغل بيبس هو الفتح . فقد ذهب إلى أنه بدلاً من
أن يلجأ الأوروبيون - الذين اعتبرهم جنساً أرقى - إلى مقاتلة أحدهم

الآخر على حفنة التراب التي يمكنهم انتزاعها أحدهم من الآخر، يجب أن يزحفوا كجيش موحد ضد الأتراك وأن يسحقوا قوتهم وأن يستولوا على أرض وثروة آسيا الواسعتين. إن العلاقة الوحيدة التي كان يمكنه تصورها مع المسلمين هي علاقة حرب.

8

لم يكتب النجاح لاستشرافات وآمال الإنسانيين في قيام أوروبا موحدة. وما أخذ يتشكل بدلاً من ذلك هو أوروبا تتألف من دول مستقلة ذات سيادة، يتمثل شاغلها الرئيسى في إقامة توازن قوة. إلا أنه مثلما كان المسلم الرمزي مرتبطاً بالتصور الأسبق عن أوروبا موحدة (أو عن «جسد مشترك للمسيحية»)، فإنه لم يختلف مع ظهور الدولة ذات السيادة. إن الإنسانيين الجدد - الذين وجدوا إلهاماً في تاسيتوس الواقعي السياسى (لا الأخلاقى شيشيرون الذى فات أوان إلهامه) - قد واصلوا التفكير في مشروع عسكري أوروبى مشترك ضد الأتراك. والحال أن جوستوس ليسيوس، الذى ربما كان أعظمهم، بقدر ما أنه قد أسهم فى إعادة هيكلة الأفكار السياسية، كان تقليدياً بشكل يدعو إلى العجب عندما يتصل الأمر بـ «المسألة التركية». لقد رأى أن أوروبا قد حطمتها الحروب المتواصلة والنزاع الأهلى، وآمن - مثلما أعرب عن ذلك فى رسالته «حول العظمة الرومانية» (١٥٩٨) - بأن «الرأس الواحد

سوف تكون قوة فعالة من أجل الوحدة الدينية، ومن أجل سعادة كل رعاياها، ومن أجل النضال ضد العدو المشترك، الأتراك». وفي أيام شيخوخته، لم يكن هذا الإنسانى العظيم يفكر فى شىء إلا فى حرب صليبية و «فى تلك السنوات، كثيراً ما تكررت الدعوة إلى الوحدة الأوروبية ضد الأتراك».

وبالنسبة للجيل الثانى من هؤلاء الإنسانين، أيضاً، بالنسبة لرجال مثل بوتيرو وأميراتو وكامبانيللا، ظلت الوحدة المسيحية والأوروبية ضد الأتراك واحداً من الشواغل المحورية. وأياً كان الأمر، فإن جيوفانى بوتيرو على الأقل لم يكن داعية سلم. لقد حذر الأمير الذى يوجه إليه النصح فى رسالته «حول اعتبار مصلحة الدولة» من إلقاء سلاحه جانباً - ليس فقط لأن السلم غير المسلح ضعيف ولأن الخطر من الخارج ماثل دائماً، وإنما أيضاً لأن الحرب هى أفضل السبل لردع الأرواح الشريرة ولإشغال الناس ولإبعادهم عن الوقاحات والأفكار الخطرة. إن السلم، بالنسبة لبوتيرو، هو بالدرجة الأولى مسألة تخص حماية وصون الدولة، والحال أن القوات المسلحة إنما تتميز فى هذا الصدد بأهمية حيوية. والسؤال الوحيد هو ضد من يجب استخدامها. ولم يكن بوتيرو يخشى من عدم توافر مبرر للحرب فى أى وقت من الأوقات. فقد ذهب إلى أنه سوف يكون هناك دائماً ما يكفى من الأتراك والعرب والمسلمين، وسوف تكون الحرب ضدهم دائماً عادلة ومبررة ومشروعة بشكل

كلّى. ولم يكن بوتيرو ينظر إلى المسلمين على أنهم مجرد كفار: فهم، من بين جميع الكفار، يعدون الأكثر غربة عن الدين المسيحي وقد نظر إليهم على أنهم أعداء للمسيحية وللدولة. ولأن الهجوم هو أفضل دفاع، فقد كان بوتيرو واثقاً من أن من الأنسب مهاجمة الأتراك في عقر دارهم بدلاً من القعود وانتظار مجيئهم. إن بوتيرو لم يتخل عن فكرة الحروب الصليبية. على العكس، لقد ظلت الحرب المقدسة في جدول الأعمال. وبينما كان يقدم النصيحة لأميره عن «فن الدولة»، وخاصة عن الهجوم بوصفه أفضل دفاع، تذكر «الأيام البطولية»، المثالية، للحروب الصليبية، عندما أتحّد الأمراء المسيحيون وحشدوا جيوشاً ضخمة لمهاجمة «الأتراك» «دون شاغل آخر غير شرف الرب ومجد الكنيسة».

وإنها لسخرية غريبة من سخریات التاريخ أن يبدو بوتيرو، وهو واحد من المفكرين السياسيين المحدثين الأوائل، في صورة صليبي يحن إلى الماضي. وقد اعتبر ضياع الأرض المقدسة «ثمرة» محزنة «للسياسة الحديثة»، سمحت فيها الخلافات بين المسيحيين للأتراك بالصعود إلى مدارج قوة دون أن يجدوا منافساً لهم لا في البر ولا في البحر. وفي ذلك لم يقلل بوتيرو من شأن القوة التركية، فهو يختلف عن أسلافه. لكن تلك القوة العظمى كانت تمثل بالنسبة له تحدياً: «إن من يرغب في الحرب لا يمكنه الإدعاء بأنه لا يوجد هناك عدو عام يمكن للمرء إثبات بسالته ضده: عدو هدفه الثابت هو اضطهاد المسيحية وجبروته من القوة

بحيث أن مقاومته، ناهيك عن التغلب عليه، إنما تعنى إحراز مجد أعظم بكثير مما يمكن تحقيقه على الإطلاق عبر حمل السلاح ضد مسيحيين. إن الأتراك يقفون على أبوابنا وحول جنباتنا: فهل يمكن أن تكون هناك حجة أكثر عدلاً وأكثر شرفاً لشن الحرب؟».

9

بعد وقت غير بعيد من رسالة بوتيرو «حول اعتبار مصلحة الدولة»، جرى صوغ «المشروع الكبير» لتوحيد أوروبا. وقد كتبه رجل الدولة الفرنسي سلى خلال تقاعده ونسبه إلى ملك فرنسا الراحل هنرى الرابع. وكان هدف مشروعه هو إقامة الهيمنة الفرنسية فى أوروبا. وقد كتب أنه لكى «يتسنى تنظيم كل أوروبا وحكمها كأسرة واحدة»، فإنه سوف يتعين أولاً إعادة ترتيب أوروبا - وهى عملية وصفت بشكل واقعى على أنها عبارة عن سلسلة من «التمزيقات المختلفة» و «التنازلات والمبادلات وتحويلات المواقع». فبهذا الشكل، سوف يجرى تقسيم أوروبا «بشكل متساوٍ بين عدد معين من الدول بأسلوب لايسمح لأية واحدة منها بأن يكون لديها مبرر لا للحسد ولا للخوف من ممتلكات أو قوة الدول الأخرى». وسوف تستبعد أوروبا الجديدة هذه البلدان التى توجد فى أوروبا الشرقية الحالية، وليس فقط لاعتبارات دينية: كان سلى يعتبر الشعوب التى تسكنها شبه وثنية وشبه منشقة. فالاعتبار المهم هو أن تلك

الشعوب إنما تنتمي «إلى آسيا بالدرجة نفسها التي تنتمي بها إلى أوروبا على الأقل»، وهي تكاد تكون بربرية. إن مجرد اتصال بولندا وبروسيا وليثونيا ومسكوفيا وترانسلفانيا بالأتراك والتتار، حتى وإن كان هذا الاتصال قد أخذ شكل خوض حروب ضدهم، قد جعل هذه البلدان «أجنبية وغريبة بشكل ما في نظر بلدان الجزء الغربي من أوروبا». وهكذا نرى أن الحرب ضد الأتراك، إذا خاضها «برابرة»، فإنها لا تجعل المرء أوروبياً مع ذلك. فهي قد تكون ببساطة نزاعاً فيما بين «البرابرة» أنفسهم. على أن الحرب ضد غير المسيحيين تعتبر ضرورية لأوروبا في «مشروع» سلى «الكبير» أيضاً. فالفكرة الأساسية للمشروع هي: «إقامة السلم في أوروبا وتحويل الحروب المتصلة فيما بين أمرائها العديدين إلى حرب أبدية ضد الكفار».

والحال أن هذا المشروع الكبير كان المحور المرجعى للراهب سان بيير، أشهر رسول للسلم الأوروبى فى القرن الثامن عشر. فقد كانت فكرته الثابتة هى خلق «اتحاد أوروبى» وعقد مؤتمر للدول الأوروبية، يجتمع بصفة دائمة ويسوى فيه ممثلو الدول الأوروبية بشكل سلمى كل ما قد يكون بينهم من خلافات. إن أوروبا الموحدة سوف تجعل "عالم بأسره سوقاً حرة تعمل لمصلحتها، لفائدة الأوروبيين. وبين أمور أخرى، فإن الاتحاد الأوروبى سوف يحل النزاعات التنافسية الناشئة عن توسع الاستعمارى، لأنه لا يلىق بالأوروبيين أن يتصارعوا فيما بينهم

بسبب « المتوحشين ». وكان ذلك كله واضحاً. أما ما لم يكن واضحاً
لسان پير فهو كيفية التعامل مع المسلمين ، جيران أوروبا. قبل أن يتوصل
إلى حل ، تذبذب بين خيارين .

أما الخيار الأول فهو يتمثل فى دمج المسلمين فى اتحاد السلم
الأوروبى ، وهو قرار أوروبى لن يكون للمسلمين رأى فيه . وبالرغم من
كونهم شركاء غير أنداد ، إلا أنه سوف يتعين عليهم أن يقدموا إلى
الاتحاد مساهمة مالية أكبر من مساهمة الدول الأوروبية . إن السلم ،
بالنسبة للأوروبيين لن يكون ملائماً لأغراض الاستثمار فحسب (فهو
سوف يكفل حرية التجارة) ، بل إنه سوف يكون استثماراً ملائماً فى
حد ذاته . والحال أن التزايد فى الإتصال والذى سوف تحققه حرية
التجارة سوف يؤدى تدريجياً إلى تقويض الإسلام وتمهيد السبيل أمام
المسيحية كديانة عالمية . وبهذا الشكل ، فإن الثقافة الأوروبية سوف تحرز
الهيمنة فى البلدان المسلمة ، التى سوف يعاد صوغ نظمها السياسية
بحيث تتمشى مع المعايير الأوروبية .

أما الخيار الثانى الذى فكر فيه سان پير فقد كان أقل سلمية ، حيث
يظهر فى سياق مشروعه السلمى المتعدد المجلدات بوصفه الحل النهائى
لمسألة المسلمين . لقد اقترح حملة صليبية شاملة ، شرطها - بالطبع -
هو الوحدة الأوروبية ، « اتحاد غير قابل للانحلال يجمع كل الحكام

المسيحيين» للدفاع ضد الأتراك وجميع الأعداء الآخرين. ومن أجل إثبات مدى الحاح مثل هذا الدفاع، بدأ سان بيير يتحدث عن «الحقد المتقد واللدود» - ليس حقد الأوروبيين تجاه المسلمين بل حقد «الجنود المحمديين تجاه الشعوب المسيحية». وقد رسم صورة لأوروبا تحت التهديد وأشار إلى أن الخطر الأكبر إنما يتهدد الدولة البابوية، دولة رأس المسيحية. ولم يكن بوسع سان بيير أن يستمر في موقفه الدفاعي طويلاً وكان متحمساً إلى تصور «اتحاد هجومي للقضاء على الأتراك». وقد حدد لنفسه مهمة إثبات أن «هذا المشروع الداعي إلى القضاء على الأتراك ليس صعباً على التحقيق بالدرجة التي اعتدنا تصورها». وقد اتخذ برهانه شكل سؤال بلاغى: ما هو الشيء «الأكثر مجداً والأكثر أهمية بالنسبة للمسيحية من إقامة السلم إلى الأبد بين الحكام المسيحيين، من ناحية، والانخراط بنشاط فى القضاء على الأتراك، من ناحية أخرى؟». إن الحملة الصليبية الشاملة التى كان سان بيير يحلم بها «سوف تطرد التركى من أوروبا بل ومن آسيا وأفريقيا» وسوف تعود على الحكام الأوروبيين بالمجد العظيم وبالمكاسب الوفيرة. وهكذا فإن حقيقة الاتحاد الأوروبى والسلم الأوروبى كانت تتمثل، كما هو واضح، فى أنهما قد جرى تصورهما كـ «سبيل إلى الحملة الصليبية الشاملة؛ المنسقة بشكل أكثر حزمًا وعلى نحو أفضل بما لا يقارن مما فى أى وقت مضى».

ومن المؤكد أن سان بيير لم يكن أعظم مفكرى تلك الفترة إلا أنه

غالباً ما كان يجرى الاستهزاء به . على أن شعبيته ونفوذه كانا ملحوظين ، وقد كان من نواح كثيرة رجلاً مثلاً لعصره . لقد كان (مع الاعتذار لماركس ولبنّام) عبقرياً من عباقرة البلاهة الأوروبية . والحال أن أحداً ممن يسمون بالرجال العظام لم يمر به مرور الكرام . لقد كان يتعين أخذه مأخذ الجد ، كما لا بد أن مشروعه الصليبي قد أخذ مأخذ الجد . إن الحملة الصليبية الشاملة لم تكن ملحقة لمشروع سان بيير الخاص بالسلم بل كانت جزءاً لا يتجزأ منه . وحتى لو كانت الانتهازية وحدها هي التي جعلته يتحدث عن الحملة الصليبية - مثلما يزعم البعض - فإن ذلك لا يشير إلا إلى أي حد كانت الفكرة الصليبية ماتزال حية وإلى أي حد بعيد كان مايزال بوسعها تعبئة السياسيين الأوروبيين . لقد كانت الفكرة الصليبية تناقش في إنجلترا وفرنسا عندما كتب الدوق دو سلى ، سلف سان بيير ، مشروعه الكبير ، وكانت بعيدة عن أن تكون قد نسيت في عصر التنوير . ومن بين معاصري سان بيير ، لم يكن الذى نظر بجدية فى إمكانية شن حرب صليبية جديدة شخصاً أقل من الماركيز دارچنسون ، وزير خارجية لويس الخامس عشر .

لكن دارچنسون ، الذى اعتبر سان بيير « عبقرية سياسية كبرى » ، لم يكن يريد مجرد أية حملة صليبية من أى نوع . فقد شرع ، بدلاً من ذلك ، فى التفكير فى مشروع صليبي يتناسب مع « عصر العقل » . وكانت فكرته تتمثل فى « شن حرب صليبية من شأنها أن نكون مدعاة

للمسرة في نظر الرب وكذلك في نظر الشعب». وكان تصويره جديرا
بسياسي أوروبي بارز: «إن الثورة الكبرى الأولى التي من المحتمل أن
تحدث في أوروبا سوف تتمثل في فتح تركيا. [...] وسوف يكون ذلك
حملة صليبية حقيقية تجعلنا محبوبين في نظر الرب وكذلك في نظر
الشعب». «وبهذا الشكل سوف نتمكن تدريجيا من سكني مجمل
الأرض القابلة للسكني وترتيب أحوالها وتحويلها إلى المسيحية وزخرفتها.
[...] وسوف يكون ذلك في صالح كل من السماء والأرض. سوف
يكون ذلك الثمرة الكبرى والمجيدة لإقامة الجمهورية الأوروبية».

ومن شأن فحص كلمات فولتير، الرمز الأبرز للتنوير، أن يوضح إلى
أى حد لم تكن هذه المشاريع والتصورات غرائب تاريخية. إن تقدم التنوير
لم يكن يعني تراجع الحملة الصليبية. وأن يكون فولتير، شأنه في ذلك
شأن كثيرين من معاصريه الأقل شأنا ولكن دون أن يكونوا بالضرورة أقل
استنارة، قد تمنى إبادة الأتراك واعتبرهم أكبر لعنة حلت بالأرض إلى
جانب الطاعون، فإن ذلك لما يعد في حد ذاته من الأمور المشرفة
قال «لا يكفي إذلالهم، بل يجب تدميرهم». وقد أعرب عن
العميق لأن «الدول المسيحية، بدلا من أن تدمر العدو اللدني
بتدمير إحداها الأخرى». وكانت التصورات والرغبات
هيمنة قوية في المراسلات الشخصية للعلاقات
علاقات بين دول. ولا بد أن فريدريك الثاني

جروسي المستنير، كان يعرف صديقه فولتير، ملك الفلاسفة، معرفة جيدة عندما كتب إلى الرجل العجوز، محاولاً رفع معنوياته: «ربما يسعدك الحظ وتتمتع برؤية المسلمين وهم يطردون من أوروبا». أما فولتير نفسه فقد أفضى للقيصرة [كاترين الثانية]، سميراميس الشمالية، بما يلي: «إنتصرى على الأتراك، وسوف أموت مرتاحاً». ويبدو أنه قد شعر بأن حياته لم تحقق غايتها بالفعل، بأنه كان مايزال هناك المزيد الذي كان يمكنه عمله: «اتمنى لو كنت قادراً على الأقل على مساعدتك في قتل حفنة من الأتراك».

[ملحق]

ليون تروتسكى

سؤال من خارج البرلمان إلى السيد پ. ميلوكوف

السيد النائب !

أنت واحد من مدشنى وملهمى ما يعرف بالحركة «السلافونية الجديدة» ، والتي تبرز على المسرح ليس باسم آخر غير اسم أكثر المبادئ العامة احتراماً عن الحضارة والإنسانية والحرية القومية.

لقد أكدت مراراً، فى كل من أعمدة الصحف ومن فوق منبر الدوما، أكدت للحلفاء البلقانيين - أى للأسر المالكة وللزمر المالكة الحاكمة فى البلقان - على تعاطفات ما يسمى بالمجتمع الروسى الثابتة تجاه حملتهم «التحررية».

ومؤخراً، خلال فترة الهدنة، قمت برحلة سياسية إلى البلقان؛ وزرت عدة مراكز وذهبت، وهذا شئ يتميز بأهمية خاصة، إلى الأقاليم التى استولى عليها الحلفاء مؤخراً.

ألم تسمع خلال رحلاتك - لا بد من افتراض أن هذا كان من شأنه أن يهملك - عن أعمال الوحشية الفظيعة التى ارتكبها جنود الحلفاء الظافرون على طول خط زحفهم، ليس فقط ضد الجنود

الأتراك العزل، الجرحى أو الأسرى، ولكن أيضاً ضد السكان المسلمين
المسلمين، ضد الشيوخ والنساء، ضد الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة؟
إذا كنت قد سمعت - ولا يمكن أن نتصور إلا أنك قد سمعت -
فلماذا أنت صامت؟

لماذا خرس ريتشك^(*) البليغة؟

ألم تجبريك الحقائق، التي لا سبيل إلى إنكارها أو دحضها، على
التوصل إلى استنتاج أن البلغار في مقدونيا والصرب في صربيا القديمة،
في سعيهم القومي إلى تصحيح البيانات في الإحصائيات الاثنوغرافية
والتي لا تعد ملائمة تماماً لهم، ينخرطون باستهانة تامة في إبادة منهجية
للسكان المسلمين في القرى والمراكز والبنادر؟

ما الذى يمكنك قوله إزاء هذه الأساليب المستخدمة في تأمين انتصار
العنصر السلافيونى؟

ألا توافق على أن مؤامرة صمت من جانب صحفنا «الكبرى» -
راسيا (روسيا) الحكومية، ونوفويه قريما (الأزمة الحديثة) الشوفينية
التي تتحرك تحرك الأفعى فى العشب، وروسكايا مالفا (الخبرة الروسية)
المعتدلة التي تتحرك حركة جواد الجر الأمامى، وروسكويه سلوقا
(الكلمة الروسية) التي تدق على الرق بعنف، وريتش (الكلام) التي
تتصنع الاحترام دائماً - ألا توافق على أن هذا الاتفاق المتبادل على

التزام الصمت إنما يجعلكم كلكم رفاق طريق وشركاء معنويين فى الأعمال الوحشية التى سوف تظل وصمة عار على عصرنا بأكمله؟

أليست احتجاجاتك، فى هذه الظروف، ضد الفظائع التركية -
والتي لأنوى بالمرّة إنكار وقوعها - هى كمسلك الفريسيين المقرّز:
ناشئة، لا بد من تصور ذلك، ليس عن المبادئ العامة الخاصة بالحضارة
وبالإنسانية بل عن حسابات الجشع الإمبريالى المفضوحة؟.

أليس واضحاً لك أن التواطؤ الصامت من جانب الأحزاب الروسية
«الكبرى» وصحفها فى الجرائم البلغارية والصربية - الآن، حيث
استأنف الحلفاء البلقانيون عملياتهم العسكرية - لا بد وأن يسهل على
الأخيرين عملهم القاييلى [نسبة إلى قاييل. - المترجم] فى ارتكاب
المزيد من المذابح ضد شعب الهلال لمصلحة «حضارة» الصليب؟

ما الذى يمكنك قوله رداً على كل هذه الأسئلة البسيطة
والواضحة، أيها السيد النائب؟

أم انك تعلمت أخيراً الاستنتاج ووجدت ما يكفى من العزم
لاستنتاج أن زعيم المعارضة «المسئولة» [أى پ. ميليوكوف نفسه. -
المترجم]، وقد أخذ على عاتقه العمل كوسيط لديبلوماسية بطرسبورغ
لدى الأسر المالكة البلقانية، قد تحمل بذلك نصيبه من المسؤولية أمام
الرأى العام لبلاده هو عن أحشاء الأطفال الأتراك الممزقة - المفقودة

ورقاب المسلمين العجائز المقطوعة حتى العظم؟

إذا كان الأمر كذلك، فليس أمامك في الواقع أن تفعل شيئاً غير أن
تظل صامتاً. لكن صمتك في تلك الحالة سوف تكون له قوة اقناع لم
تمتلكها قط خطبك!

صحيفة لوتش، العدد ٣٤ (١١٠)

٣٠ يناير ١٩١٣

(*) لعب على معنى الكلمة. فكلمة «ريتش» تعني «الكلام». و«ريتش» (الكلام) هو
اسم الصحيفة - لسان حال حزب الكاديت، الذي كان يتزعمه ب. ميليوكوف. -
المترجم.

المحتويات

- توماش ماستناك: الإسلام وخلق الهوية الأوروبية
- ليون تروتسكى: سؤال من خارج البرلمان إلى السيد پ. ميليو كوف